مصر في الادب الالماني

« الموت الذهبي »

« في مئات من القصص الالمانية . صورت مصر صوراً كلها ابهام وغموض . يشعر »
« قارئها نوع من التسور والرهبة امام لغز غير واضح . تتراءى له مناظر القصة كما يتراءى »
« له الحلم من الاحلام . وتتابع وقائعها أمام عينيه متحدة بشعوره . آخذة بعواطفه ، متلاعبة »
« بروحه شتى أنواع التلاعب . فمصر ما زالت عند الالمان مهد السحر . ومنبع الوحي . »
« ومنشأ الخيال . . . أخذت عنهم منها قصص الف ليلة وليلة كل مأخذ . فهم يحاولون التغني »
« مع روح هذه القصص . فكل تفكيرهم عن مصر لا يخرج عن مجال الف ليلة وليلة . »
« وكل ما يكتبونه عنها . لا أعتبره الا تقليداً لهذه القصص . وها أنا أقدم ترجمة أول هذه »
« التآليف . وضعها احد مشاهير كتابهم القطاعل . ريتارد فوس Richard Voss »
« في كتابه المسمى قصص مصرية Aegyptische Geschichten » «المترجم»

١

تحركت القافلة ببطء تخترق الصحراء النوبية على الجانب الشرقي من النيل . وسارت يحوطها منظر الرمال بشكله الذي لا يتبدل منذ زمن طويل استغرق مسير عدة ايام . ذلك المنظر الذي تمتزج فيه رؤية قطع الصوان اللامعة البياض . والجرانيت الحجرية الأرجوانية اللون . مع المحيط الأصفر الزاخر من الرمال الوعرة والرياح الفسيح . تلك التي تتقد وتتوهج حتى حدود البحر الأحمر مكونة جبالاً رأسية الجوانب . وقمماً بنية القباب تحلق في فضاء الكون الرحيب

كان ذلك الفضاء فضاء محيط . ولكنه محيط خلو من أية قطرة من قطرات تلك العناصر الحية التي يحبها الانسان . بل اتخذ الجبال الشاهقة عاملاً على اثراء الأحجار الأبدية اليبوسة من الطموح لرؤية بريق لمعان المياه . ولم يكن أبدي التحول من النبات . بل كانت لديه أعشابه الدكن التي تضمرها عفرة رمال الصحراء تحت تلك السماء العديمة الأمطار اللامعة عند بريق الشمس الحامية الجهنمية

ولم تكن السماء والارض غير لمعان ولهب . لمعان ولهب ثابتان لا يتغيران . وكان من

المستحيل وسط هذا السعير المعمى امكان التفكير في ارتقاء سحابة قليلة . سحابة شفوقة ترسل ظلاً على هذا الانون

وكانت تلك الصورة الأبدية الشديدة الضياء هي هي لا تتبدل ولا تتغير . فكأنما ريح الصحراء من هذا العالم اللامع قد جاءت في زي شبح رهيب . أفسح الطريق وأذبل الزرع وأتلف ما قابله وبث فيه الموت العموت

ولم تلمح القافلة الصغيرة منذ عدة أيام في اثناء سيرها هذا وسط الصحراء معنى من معاني الحياة أو نسمة من نسماته . ولم تعد بنات آوى مرة اخرى من رحلاتها التي قطعتها فوق ذلك السطح اللامع . بل كانت هنالك آثار دقيقة فقط لخطوط تركتها الافاعي أثناء زحفها فوق فيضان الرمال الساكن كأنها خطوط زخرفية دقيقة . ذلك الفيضان الذي لعبت فيه ريح السموم لتملأ كل حفرة من حفراته بأعاصير اسطوانية عالية سريعة التحرك ، تحجب بلونها الأحمر المصفر وجه الشمس

وكانت القافلة مؤلفة من اربعة وعشرين جملاً واثنى عشر راحلاً يصحبهم بعض البدو من قبيلة بجا . وكانت تبدو على الجميع « ما عدا واحداً فقط » سيماء الرجال الذين يحاولون تذليل بحر الرمال الرهيب — لو صح وصفه كذلك — بسفن الصحراء .

ولم يكن من بينهم الا هذا الفرد المختلف عنهم . وهو شاب ممتلىء بدماء الطفولة مفرط الجمال ذو قوام جذاب مائل الى الليونة ووجه قريب الملامح الى أوجه النساء . ولو أن على فمه ونظراته معنى البؤس والشظف اللذين ذاقهما بكل قسوة ومرارة . .

كان هذا الشاب صقليًّا يسمى جيوردانو بالاتينو Giordano Palatino . وهو الابن الوحيد لابويه المدقعي الفقر ، اللذين باطاه في سنته العاشرة لمناجم الكبريت — وفي جوف هذه الحفر العميقة اكتسب الشاب ملامح الشظف والبؤس على فمه والطبعت في نظراته . . وكان جيوردانو هذا تلميذاً وصديقاً لقائد هذه القافلة الذي كان في الوقت نفسه عبارة عن رئيس البعثة كلها . . ولم يكن هذا الرئيس رجلاً ماديًّا بل كان رجلاً متعلماً منقباً عالماً بالحفريات مخترعاً . بل وكان خياليًّا كذلك . . وكان فرنسي المولد يسمى جاستون لاتور Gaston Latour نال حظًّا وافراً وسيتاً عريضاً في عالم الآثار والعلوم . وكانت ضالته هي البحث عن مناجم ذهب طمرتها الصحراء منذ آلاف السنين . وأخفت معالمها عن الوجود

ولم تكن رغبته في الحقيقة من وراء هذه البعثة الصحراوية الامل في الاستحواذ على الذهب لنفسه بل كانت رغبته اكتشاف ينبوع الذهب للجنس الانساني لعله يفيض عليه ثانياً من جديد . اي ان كل لذته ما كانت تنحصر الا في قيمة الفكرة الاستكشافية ليس الا . .

ولقد اضطر بطبيعة الحال ان يلتجىء الى غاية مادية بحتة للوصول الى بغيته هذه . حتى

ان جميع من رافقه في هذه الرحلة المحفوفة بالاخطار لم يعقد العزم الاّ على البحث عن الذهب دون أي عزم آخر يغريه بمرافقته . .

وانفجرت الرغبة في الحصول على الذهب في نفس الشاب الصقلي واستحوذت عليه. فراح يحققها بكل الطرق المستطاعة . وكانت مكانته لدى العالم الفرنسي مكانة الابن العزيز . فلقد اتفق ان رأى هذا العالم في احدى رحلاته الى مناجم الكبريت بصقلية ذلك الفتى الناعم في حالته المتناهية البؤس فاشتراه لنفسه ورباه وعلمه وأحبه . الاّ ان روح هذا الشاب لم تتأثر بذكاء هذا العالم ولا بتعاليمه الجدية . اذ كانت هذه الروح متسمة بهموم الحياة وويلاتها وبالبغض والكره لكل تشيع ؛ وبالطمع في الحصول والاستيلاء على مباهيج الوجود

ولقد رفضت الحكومة بذل أية مساعدة او اعانة لتحقيق فكرة باحث الذهب الخيالية . ولو أنها في الوقت نفسه لم تضع أمامه أية عقبة من العقبات او صعوبة من الصعاب . فاشترى لنفسه بجانب كبير من ماله جمالاً وخيلاً وأطعمة وآلات للعمل حتى يتمكن بها من تحقيق غاية بعثته الغريبة . وتزويدها بما تحتاج اليه . وأحضر فوق كل شيء مدخراً كافياً من الماء الذي هو اكسير الحياة في الصحراء . . وقبل البدو أنفسهم مرافقة القافلة في رحلتها . لا في الاماكن المعلومة لديهم فقط بل وفي الاماكن التي يجهلونها كذلك على شريطة استيلائهم على جانب من الذهب المكتشف . .

ولقد ذعر جاستون لاتور عند ما ادرك القوة العظيمة التي توجد في مجرد الفكرة الظاهرة للكثر المطمور

وكذلك سار الاثنا عشر اوروبيًّا من اسوان لا تحت قيادة فتىً من ابناء الصحراء . بل تحت قيادة انسان متمدين وعالم مثقف

— ٣ —

لقد أسلم حتى ابناء الصحراء أنفسهم زمام امورهم لقيادة الرجل الغريب بوجوه غاية في الجد . وكيان معقود العزم وتكلم زعيمهم بثقة قوية وتعيين ثابت فقال « لسوف أصل الى هدفك . بل ولا بد انك واصل اليه . ان هو الاّ جهاد وقتال ما انت معلنه على الصحراء عدوة الانسانية اللدودة . بل وعدوة كل مدنية وحضارة . انما يلزمك الثبات في نضالك . حيث تود ان تستطلع . وتحاول ان تكتشف . وتريد ان تستحوذ على اغلى ما تملكهُ الحياة وأثمن ما تهبهُ . . نعم أثمن ما تهبه وا أسفاه »

وجعل جاستون لاتور يعيّن الاتجاهات والطرق كأنما قد شبَّ وترعرع بين أحضان تلك

الاقطار الوحشية . واستحوذ عليه (لشقته بوصوله الى بغيته) نوع من التصوّف . وجعل يحكم بتمرة وارادة خضع لها البدو انفسهم بكل احترام واجلال .. الاّ روحاً واحدة لم يمتلك بسط قوته وسلطانه عليها . وتلك كانت روح الشاب التي ودّ لو انهُ اقتطعها لهُ من روحه القوية نفسها . اذ لم يخطر لمرة واحدة ولا جال بخلده أن ذلك الذي تجّاه من انياب البؤس وخلّصهُ من براثن الذل ثم احبه بكل نفسه قد تخلّى عنهُ وحسب نفسه بالنسبة اليهِ غريباً كل الغربة

واهتمّ العالم المنقب (الذي يكاد يشتعل في سبيل واجبهِ الخيالي اشتعالاً) بكل صغيرة وكبيرة وأخذ يسأل عن كل شيء . ويقرر أماكن الراحة الليلية وزمن اليوم في استئناف السير كل صباح مبكر . ويوزع بنفسه الاكل والشرب . ويحرس بكل عناية — وبنوع خاص — توزيع الماء العزيز . الذي جلبوه في صناديق كبيرة من الصفيح المحكم الغلق . ولم يخطر على بال احد بطبيعة الحال فكرة نفاد المخزون لكثرته . . فلسوف يحتفرون الارض للبحث عنهُ . . ويجب ان يأملوا في العثور عليهِ على عمق معين . يصل اليهِ من ماء النيل نفسه او من ماء البحر الاحمر مرشحاً بين طبقات الرمال العديدة . .

وكذلك ساروا فوق الصخور والقفار وعلى لجج الرمال الحمراء الملتهبة وتحت السماء العارية من كل سحابة ، الجاهلة بكل معنى من معاني الرحمة والاشفاق المزرقة بلون القتام والتجهم المخيف . متوغلين في اعماق مجاهل اللانهاية الخالية من الحياة . وتلك هي المأساة المحزنة في رواية الخلق والانشاء . لم يقابلوا منذ أيام وجه عربي من الاعراب المتناثرين فوق بساط الصحراء . انما ظهرت لهم الدنيا كأنها خلو من الحياة . وكأنما الخلق قد أبيد منها ونفد .. ولم تبق الاّ هي الصحراء القاحلة الجرداء بعد هذا الخراب . منبوذة مجهولة حتى من الموت الذي افنى سكانها الاقدمين

وأخذت القشعريرة بأجساد هؤلاء العزّل المنقطعين وسرت بينهم رعدة رهيبة عند ما بدا لهم فجأة أثر من آثار الانسانية واصطدموا بعلامة من علامات الحياة . . تلك التي ظلت هنا . وفي ذلك المكان ما يزيد على أربعة آلاف من السنين . وكانت عظيمة تبعث على الدهشة . تدل على مكانة الخلق والقوم الذين لم يسمع عنهم خبر من الاخبار منذ آلاف السنين ..

كانت تلك نقوشاً هيروغليفية على صخور من الجرانيت . شامخة الى العلاء فوق هضاب الوعر وبراح الرمال ..

وكانت في مكنة قائد البعثة قراءة هذه الاحرف كأنما يقرأ في كتاب مفتوح . ثم افضى بخلاصتها الى قومهِ . الاّ انهُ لم يجد فيها ضالتهُ المنشودة من هدي لنواحي الطريق . ودليل على وجود المكان الذي يتحرّق شوقاً اليهِ .. الاّ انهُ بالرغم من ذلك لم يفقد ثقته في الوصول

اليه . ولم يحد قيد أنملة عن الاعتقاد في نجاح تأدية مهمة بعثته .. كذلك كان الآخرون الذين وثقوا به كل الثقة . وأثرت فيهم عزيمته القوية كل التأثير . هؤلاء الطبيعيون الذين ما كانوا يعتقدون في الانسانية ولا الالوهية

غير ان جاستون لاتور نطق بكلمة واحدة فعلت فيهم فعل السحر . فقال « الذهب » ... ولو انهُ قال — ماء الحياة — او الحظ والمسرة — أو دواء كل داء — أو — منبع السعادة — أو — العفو عن كل الخطايا والذنوب — أو — البقاء والابدية — أو — القرب الابدي من الله — لما كان لكل هذه العبارات التي تمثل أعلى رغبة لأمانينا الحيوية ، اقل تأثير يعادل هذه الكلمة الصغيرة . « الذهب » . الذهب . الذهب ...

أن لغات الارض كلها لا تملك كلمة ثانية تساوي هذه الكلمة في القوة والتأثير . ليس الملوك ولا القياصرة هم الذين يتحكمون في الشعوب . ليست القنون ولا العلوم هي المثيرة لاهتمام الانسانية . ليس الحب ولا الغرام ولا الصداقة ولا التضحية ولا الايثار والخير هي أدق وتعاً في احساس ابن آدم . انما الطمع بالذهب والشراهة للاستحواذ عليه

ألا لو ان الله سيد السموات والارض وعد الناس بجبة من الذهب لكانت الارض اسعد الاكوان جميعاً . ولو أن عيسى عليهِ السلام صاح من فوق صليبه يوم عذّب فقال « ليست آلام موتي هي التي ستنجيكم من الشر وتخلصكم . ولكنني سأفتح لكم السماء يوم ابعث ثانياً واسب على رؤوسكم الذهب والنضار » .. اذاً لتجنب كل آدمي ظل الشر وتنحى عنهُ جهده ...

وكذلك سار العالم المثقف يحمل مثل هذا التعطش نحو الذهب للبحث في الصحراء النوبية عن فردوسهِ المفقود — وكان اشد هؤلاء الجميع شراهةً وطمعاً في طلب عبادة العجل الذهبي هو ذلك الطفل الفدن اللين ذو الوجه الناعم والملامح الرقيقة . ولكنهُ ذو النظرات المخيفة المرعبة الشرسة كذلك .. ذلك الذي اعتقد في طهارة روحه جاستون لاتور اعتقاده في وجود الخير على الارض

— ٣ —

وأصبح محبوب الجميع . الذين لم يبق الضعف في قلوبهم اية محبة حقيقية ولا احساس رقيق . والذين ما كانوا يمتلكون الا فكرة واحدة ليس الا — متى نصل؟ .. اواه لو انا نصل

غير ان الغلام الذي كانت لهُ دائماً سيماء الطفولة . تمكن من امتلاك هذه القلوب المحترقة بلهب الشوق الى امتلاك الذهب الخيالي يوماً من الايام .. وحتى البدو أنفسهم اظهروا اهتماماً عظيماً به . كأنما هو ابنهم المحبوب . . . وكأنما تقع عليهم تبعة حمايته ، فأصبحوا يحترونهُ ويحافظون عليهِ . وبذا اصبح أكثرهم عناية ورعاية واعظمهم مقاومة وتحمل . فلم يظهر

عليه تعب او كلل . ولم يشعر بجوع او عطش ... واذا ما تكاثر القوم في اماكن الراحة وزاحم بعضهم بعضاً عند توزيع الماء يغترفون منه كأنما يغترفون من منابع الذهب ، وقف بعيداً عنهم يبدي شيئاً من التقزز . ويطل بريق الاحتقار من نظرات عينيه الورقاوين كزرقة الحديد والصلب من صلابة الفولاذ . . .

غير انهُ حالما يهتم احد بانتقاء افضل محل من اماكن الراحة الليلية لذلك الغلام الذي تبدو عليه سيماء النعومة والليونة . او يقدم له اية مساعدة او عناية . ينفجر بضحكة عالية . ثم يغرق فيها

كانت ضحكاته ضحكات طفولة ساذجة ضحكات قلب غمره السرور وطفح منه . لا تتفق وتلك النظرات الغريبة وكأنما هي صادرة من شخص يغايره كل التغاير . ويخالفه كل الاختلاف . وكأنما كان صوت تلك الضحكات في سكون ذلك القبر كغناء القنبرة او تغريد الطيور . اثرت فيهم جميعاً على الاقل تأثير الفرح الربيعي كلما سمعوها . اذ كانوا يحسون في انفسهم الحاجة الى روح مرحة وشعور مبهج . يدب تحت فيهم الهمة والنشاط . ويبعد عنهم اليأس والفتور . ففي مثل اقاليم الموت هذه تنقرض الاصوات كلها وتزول

ولقد استمع العالم الى كل ضحكة من ضحكات الغلام . ومرت على وجهه الجامد الجدي سحابة سعادة ونعيم كلما طرقت سمعه فاصت لها بانتباه وهي تزن رنينها المستحب لديه . وتأخذ في الارتفاع والاتساع . ولئن استطاع المرء ملاحظة الرجل في مثل هذه اللحظة . لرأى كيف ان ضحكات هذا الغلام لدى العالم البحاثة الغارق في لجج وحدته والتائه في مسالك تفكيره . كانما هي صوت الامل والسعادة بل صوت الحياة نفسها والنعيم

ساق جيوردانو بعيره الى جانب بعير صديقه الابوي ثم قال له بصوت مكبوح مبحوح « ان هذا اليوم لهو الثاني عشر . لقد بدأ اليأس يدب في نفوس القوم . وبدأوا يشكون . ها قد تعبت الجمال ايضاً وسينفد الماء عن قريب . ولكنك تظل هكذا هادئاً مطمئناً . او تبدو على الاقل كذلك

— اني لكذلك ! — متى ستفصل ؟ — قد يتم ذلك غداً ! !

— قد يتم ؟؟ . وماذا يحدث اذا لم نفصل مطلقاً ابداً ؟ — بل سنفصل ! !

— الا قل لي ماذا يحدث اذاً ؟ اذاً ! ! ! . .

وهنا تهدج صوت جيوردانو وارتعش ثم صرخ في وجه العالم يقول « انا لا اود الفناء في مثل هذه الارض المخيفة . اني اود الحياة — الحياة — الحياة . واود ان اتمتع بحياتي التي يجب ان تبدأ من الآن

— من الآن فقط ؟

وصدر هذا السؤال من العالم كأنما يحمل نغمة الاتهام العنيف . والاتهام الحائر المتردد. الاّ ان الغلام لم يحترمه ولم يفهمه على الاطلاق . اذ أجابه بعواطف مكبوحة يبدو التعب في كبحها فقال « اي نعم الآن فقط . والآن لا غير . حيث تود الاستيلاء على الثروة . انهُ ليبدو لك جد تبذير.وجد خطإ . بل وجدٌ ... تخيّل واعتباط اذا لم تجعل نفسك غنيًّا . فهل ستصل بالفعل... . وستجد حقًّا ؟... انلك مطلق الحق في ذلك.وانهُ لمن الواجب عليك ان تأخذ لنفسك من الذهب اكبر نصيب . وسوف لا يعترضك في ذلك اي معترض . حتى ولا ضياع الذهب أنفسهم

— واجبي ؟ انك تعلم علم اليقين ما قيمة الذهب لديّ

يجب عليك بالرغم من كل ذلك ان تأخذ . فاذا لم يكن حتى من اجلك . فليكن من اجلي

— من اجلك ؟ — نعم . انني اود ان اعيش . ان اعيش . ومن الآن فقط اود ان اعيش... انك لتعلم... علم اليقين ماذا كانت حياتي من قبل ... جوع وفاقة . اي نعم جوع وفاقة . . . لقد تركني ابواي للجوع لعلي اظل صغيراً وحقيراً بقدر المستطاع من لقيمات مناجم الكبريت الضئيلة . انني لاُكره هذين الابوين . وانني لاُلعنهما اشد اللعنات . انني ابغض كل من آلمني صغيراً .ونغص عليّ طفولتي ليرزق من حولي . انني لامقت الخلق اجمعين

— حتى انا ؟ — « وحتى انت — انك لتعلم حقًّا عمّ تتحدث ؟ ولكن يجب ان نعمل سريعاً . ويجب ان نجد سريعاً . والاّ ...» ثم توقف فجأة عن الكلام . — « والاّ فانك تكرهني » .... ثم ابتسم العالم عند تصوره امكان بغض غلامه المحبوب له وهو الذي يود من اجله اخذ جانب من الذهب يكون كثيراً بقدر المستطاع . اكراماً لهُ فقط. اذ انهُ يود « الحياة — الحياة — الحياة »

— ٤ —

وساروا بعد ذلك وسط الاكوام واعالي الجبال والمنخفضات الملتوية في بحر رمال الصحراء النوبية . وكان غرق السفن التالفة في وسط البحار العالية احسن منهم حالاً . حسناً لايحتاج الى مقابلة . اذ انهم يجدون في ارتفاع الماء اليهم شبح الموت الرحيم . اما راكبو الصحراء فكانوا على النقيض من ذلك

وكانوا اذ يسيرون الساعات بعد الساعات بين امواج الجبال الحمر . ويقضون الساعات بعد الساعات وسط انير الضياء الارضي الذي تبعثه ملكة السماء العتية الجبارة على القوم حتى تميل بسيرها المتلف الى الغروب تاركة مُلْكها قدماء المصريين في حلة ارجوانية اللون. فيقفون عن السير متعبين مسغبين ليأخذوا قسطهم بعد ذلك من الراحة . ويخلصون سفنهم الحية من احمالها الثقيلة . ويضربون خيامهم فوق الارض حيث تبدو فجأة كزهار ناصعة البياض جميلة

ثانية على تربة شديدة الاحرار . اذ يمسي كل هذا العالم الموحش ساعة الغروب غارقاً في لجج من الظلام . مستوراً بستر من السكون . وحيث لا يوجد على وجه الارض كلها رهبة تعادل رهبة الصحراء صاحبة الاسرار والالغاز في فترة الليل وساعة الهجوع . وفي احد الايام وقد اجهد القوم انفسهم يتعب المسير الحثيث تحت شمس تلهب الارض مرسلة لظاها الابيض من سماء مغطاة بغشاء اشهب . وصلت قافلة الباحثين عن الذهب الى ميدان فسيح الارجاء من تلك الميادين المكشوفة الواضحة . حيث شاهدوا فيه عن بعد مرتفعاً من صخر الجرانيت . وكان هذا المرتفع العالي النحيف المذنب القمة كأنهُ من المسلات الطبيعية يتوسط بحر الفضاء كأنهُ مرشد او دليل

واسترعى الفتى العسقلي اول الامر رجال القافلة اليه وخاطب العالم بوجه كأنه مصبوب من الشمع ترك في نفسهِ اثراً لم يشعر بهِ في حياتهِ من قبل . فقال له منفعلاً اشد الانفعال « ان ذلك الاثر الصخري لدليل من احد اصدقائك المنقبين السابقين تركه ليكون علامة على موضع ينتظر فيهِ منذ زمن طويل . والآن فلسوف نبتّ في امرنا ونحصل على العزيز الحصول » وركب القوم بكل عجلة مستطاعة الى هذا الاثر الواضح . وبقي القائد وحده في النهاية يتبعهم ببطء كأنما يلزمه كسب الوقت لاخماد نار الهياج . ولم تطلب منهُ القافلة اكثر من تركه لزمامها تجدّ الخطى حيثما تريد

وكان على هذا الاثر الصخري صورة محفورة لاحد الفراعنة الاقدمين بشكل اكبر من الطبيعة بكثير . وحملت الصورة الجانبية للوجه ملامح الملك الحازم . بوجنة واضحة العرض وعلى ركبته عصا ذات اهداب منسدلة طويلة طولاً غريباً ودقيقة كذلك . وكانت العينان بشكل لوزي تحتهما شفتان مسحوبتان سحباً جميل الصنعة والانسجام . وكان الصدر الرفيع مرسوماً من الامام . الا أن مقاييس الاعضاء كانت تبدي بالعكس موقفاً يظهر فيه منظر الرأس يحمل التاج المزدوج . ولم يكن هنالك غير قميص كثير التجعد والطي على جسم جلالة صاحب ارض النيل العليا والسفلى .

وكانت هنالك كتابة محفورة على الصخر فوق لوحة طويلة رفيعة بجوار رسم الملك . . .

والتفّ القوم حول تمثال الملك محملقين في الصورة والكتابة متوقعين دلالة عظمى منهما وصرخوا في القائد بكل قوة يدعونه اليهم . حيث يجب ان يقرأ . ويجب ان يخبرهم . . .

وملك العالم كل شعوره وهو واقف أمام التمثال يتفرس فيه ويطل في عينيه بريق النصر اللامع . ولو انه لم يتململ قيد شعرة ولم يخالط صوته أي تهدج يفضح عليه شعوره الذي خالطه لاعظم حادث في تاريخ حياته . ولم يظهر عليهِ أنه انما يقف أمام اللحظة التي هي فصل الخطاب في حياته المقبلة . . .

— ألا فلتقرأ ؟ ؟ . . ألا فلتكلم ! !

وزلول صوت الغلام وهو ينطق بتلك العبارة التي قالها وهو أبيض اللون . . وقرأ جاستون لاتور . . في عهد الملك مينس Menes الحاكم الاكبر للاقليمين المتحدين ابن آمون المحبوب والاله الطيب . أمكن اكتشاف مناجم الذهب في السنة السابعة من حكم جلالته بصحراء الكوش . ووضعت كنوزها البرّاقة تحت أقدام الآلهة . اعلاء لتاج مينس الابيض في الجنوب . واعلاء لتاج مينس الاحمر في الشمال » . .

عمّ أول الامر سكون رهيب . أعقبته حركة فهياج كهياج الثورة . وأحاط الكل هذا التمثال بوجوه شرسة وصرخات صحراوية . باسطٌ كلٌّ ذراعيه كأنما يحمل الصخر سورة رب مقدس أو اله معبود . . العجل الذهبي في الصحراء . . . وكأنما هم يصلون لهُ ويبتهلون . . وهزّت روح رجل العلم احساساتٌ خوف مبرح من جديد . وكأنما كانت تمتعه بقسوة وغلظة ومحاسبه بدقة وتأنيب « ألا ماذا أنت فاعله ؟ ؟ لقد أردت جلب الخير فما جلبت (كما يبدو) غير الشر فقط . لقد أملت في استخلاص الشفاء — اذ يمكن استخلاصه من الذهب — ولكنك تتعب هذه الأرواح بمالا يشفى منه ولا يطاب . . ألا ماذا أنت فاعله ؟ ثم نظر الى الغلام بنوة خارجة عن ارادته . ذلك الذي كان محبباً اليه كل الحب . وذلك الذي وقف الآن فاقد الحركة كأنه شلّ في مكانه او سمق . أبيض الوجه كالأموات . ينظر زائغاً حائراً متردداً لا يستقر على قرار . وكأنما يرى رؤيا غير منظورة أو حلماً من الاحلام . . .

كان عقل جيوردانو قد تزحزح . . ووجدانه قد تزعزع . وشعر هو نفسهُ بنفسهِ . وكأنما أصبح ذاته انكر . يستحم في فيضان جارف من البريق . . وكان ما يطغو على روحه هو الذهب — الذهب — الذهب . . ثم أحسّ بنفسه وقد اندفع الى تياره اللامع المضيء فسقط فيه . وتركه يحيط بكل نواحي جسمه ويغمره . ثم أخذ يعبُّ من ذلك العنصر البراق بريق الشرر . ويجرع منه كما يجرع الخمر الذهبية . . شرب ثم شرب . ونهل بكل شراهة وفظاعة وطمع . . شرب . وشرب . ولكنه لم يرتو ولم يشبع . . انه في حاجة اليه احتياجاً جعله فاقد الرشد كمن به ثملٌ من شراب أو كأنما حلّت به روح من الارواح . .

— جيوردانو . . ! !

كان هذا هو صديقه الذي ناداه بصوت حال كله خوف . فلم يقدره هذا الاخير . إذ أن ما أحسّ به العالم من الشعور المفاجيء الادهى من الاحتقار هو « الاشمئزاز » . . .

وبدا كأنما من يناديه يغفو من حلمه : وسأله بمثل تلك النظرة الجامدة جمود الجرانيت الملقى منذ عدة آلاف من السنين رمزاً حيًّا على حماقة ذهب صاحبه فقال :

— ماذا هنالك ؟ ؟ . لمَ تناديني ؟ ؟ — انك لترعبني

— لماذا ؟ — لانه يبدو لي خروجك عن انسانيتك ! — ماذا ؟
— الذهب ! ! — اننا لم نقتلكم بعد . . — لسوف تقتلكم ! !
— والآن ماذا هنالك ؟ ؟ — تروَّ وحاول ألاَّ تهلك نفسك به . .
— ماذا تعني بذلك ؟ ؟ — أعني أنك ترى في الذهب ألوهية حقيقية .
ولسوف تلزمني ان ألعن هذه الساعة ألف لعنة

وخاطب جيوردانو صديقه قائلاً « ألوهية ؟ ؟ » ثم سكت برهة وعاد يقول . . « انه لألوهية . وكان ألوهية منذ البدء . وسوف يظل ألوهية الى النهاية . انه هو الألوهية الوحيدة البحتة . الألوهية الخالقة للأرواح ليس الاَّ . . كلما مجدت الآلهة أو كلت وسئمت . ظلَّ هذا الاله القادر الأبدي الذي لا يحتل عرشه السماء . ولكنهُ يحتكم بالارض . . ألا فاخبرني ماذا تعيبهُ عليَّ من معرفتي بتلك القوة أيها الرجل الذي لا يهيم بغير العلوم »

وعاد العالم سموتاً من حيث جاء . .

وسار رجال القافلة من جديد . وكأنما كانت كتل الجرانيت الصخرية من هذه الجبال أشبه بالقوة التي بعثتها حمى الرغبة في نفوس قاطني البيد من هذه الصحراء . يتبعون دليلهم كجيش حالفه النصر . يستبق الى اقتطاف المجد وكسب الاكاليل . . غير انه بدا على وجه جاسنون لاثر طابع لا يتم على شيء من الانتصار . . كما انه رأى في هذه الساعة . [التي يسميها هو نفسه بالساعة الكبرى من حياته] شيئاً جديداً لم يكن بالحق وحي ألوهية على الاطلاق

ووصل الجميع في الأيام التالية بعد ان رحت صخور الصحراء مفتقدي الذهب . بل مفتقدي الاله . .

— ٥ —

كان جبل من الصوان يرتفع عالياً في المكان الذي يحتوي على كنز الصحراء من المعدن الاهي . وفي وسط الغبار الاقتم المتعالي كأنه الهضاب يعلو بريق أصفر كأنه البحر المتحجر بسحر ساحر قدير . وحينما تحطم عاصفة الصحراء صخرة من الجبل لتقذف بها كجلمود تحطه من على يبرق موضع القطع بريق البرَد الابيض في الشتاء . وتسلط عليه شمس البيداء نارها فيها فتحميه وتتركه يتقد اتقاد الأتون . . . وساروا بعدئذٍ بانحدار رأسي . وتعددت المنعطفات والالتواءات في طريق الباحثين عن الذهب واختفت الصحراء فجأة من كل ناحية . ولم يبدُ لهم غير منظر القبة السماوية بلونها الفيروزي وامواج الضوء النوراني المرتفع من البلورات البرَّاقة التي تعكسها الشمس من جوانبها المصقولة . حتى لكأنها جبال الماس الخيالية القديمة . . .

الاَّ ان العجائب لا حدَّ لها . فمنذ ثلاثة آلاف واربعمائة سنة قبل المسيح حكم مصر الملك مينو — وفي هذا الوقت اكتشفت مناجم الذهب في « ارض كوش » واستولى عليها . ثم

اختفت عقب ذلك بقليل من ارض مصر ومن افكار الخلق والشعوب كما لو أنها لم تكن قط. ثم هو ذا اليوم — بعد ستة آلاف سنة تقريباً — من يعرف خبرها ويمكنهُ الالمام بقصتها

في هذا المكان عاش الانسان من قديم الزمان. وفي هذه النواحي قامت مدنية من المدنيات القديمة . هذا المكان . مكان عالم للموت الرهيب

وأمر جاستون لاتور بضرب الخيام في احدى الامكنة الفسيحة . وارتفعت اكوام الرمال العالية كالعمد الحمر فوق درجات الصخور. المترامية هناك . تظهر بحالها هذه نتيجة مجهود عواصف السنين الالف الاربعة . وكأنما شاءت الطبيعة ان تبدي جسارتها وجهدها في ستر كنزها وطمره . غير انهُ كان هنالك كثير من النواحي العارية في الاماكن المختلفة تحمل آثار التنقيب والتكسير ... وكذلك وصل الجميع في النهاية

وكان اهم واجب عليهم قبل كل شيء . لا البحث عن باب الاله الذهبي المطمور وفتحه بل البحث عن عين من عيون الماء. فلابدَّ انهُ كان هنالك عين يومذاك . ولابدَّ من ان تكون هنا حتى اليوم . الاَّ أنهم — بالرغم من عدم بقاء غير القليل من مدخر الماء لديهم — احسوا بالعطش القاتل نحو الذهب يلهب أفئدتهم ويحرق ارواحهم . فلم يذهب منهم مع العالم غير نفر قليل من الرجال للبحث عن الماء — وحمل الرجل بنفسه المجرف في يمينه ليكون قدوة لهم وامثولة لديهم . الاَّ ان معظمهم جرى مسرعاً ينبش الارض بغير قائد أو مرشد تلهبهُ حمى الفضول وجنون الرغبة في البحث عن الذهب المقدَّس في جوفها العميق . وكان (من هؤلاء الاخيرين) الغلام ذو الضحكات الواضحة الصبيانية .. فمنذ تلك الساعة التي ابدى فيها لصديقه (الذي انقذه من الذل واسبغ عليه يسره ورخاءه) أفكار اعتقاده الاهي وجحده الشنيع . لم تفارق وجه العالم أمارات الجد والتفكير .. الاَّ ان محنته للغلام المسكين كانت ما تزال تلوح هاوية . حنونة . والدية . .

ولقد كان الحظ حليف رجال البعثة — اذ عثر الباحثون عن الماء بسرعة على بئر قديمة وكانت مغطاة بقطع كبيرة من الصخور الحجرية التي دحرجها ولا بدَّ زلزال قديم يحميها من الردم والانظار (تلك ولا شك أعجوبة) . . واذ ازيحت الصخور وابعدت بدا عمق اسود مستدير يثير العجب من اهل هذا الزمن الذين رمموه وسوَّروه كما سوَّروا معابدهم وقبورهم الابدية

ورضي جاستون لاتور بنفسه ان يربط بحبل ويدلى به الى القاع . . وبعد برهة طويلة رهيبة. زأر من التف حول البئر زئير الاسود في القلاة وصاحوا معلنين وجود « الماء » ...

واندفع من جوف سميم الارض تهليل مبحوح شق ضوء النهار يحمل معهُ لفظ « الذهب » .. فلقد عثر الآخرون كذلك . وها هم ينادون معلنين الاسم الالهي . ولم يكن تهليلهم صراخاً فقط . بل كان عويلاً وباحاً . رددت صدى اصواتهم العالية ارجاء الصحراء الصموتة . كأنما

ارادوا بذلك بعثرة الصخور او دك الجبال . او كانما ودّوا قذف صراخهم فوق المنبسط غير المنظور حتى يصل كالرعد الى اللانهاية غير المحدودة .. وكانوا يكررون من حين الى حين قول « الذهب الذهب » وكانت تمتد عروق هذا المعدن الاصفر المحبوب امتداداً عريضاً وتظهر بوضوح وجلاء منابع بهجة الحياة وسعادتها امام اعين الباحثين عن الذهب الذين كانوا في استطاعتهم الاغتراف منهُ كيفما يشاءون .. — ولقد عثر الآخرون ايضاً على الماء الذي يستطيع الانسان الاستفادة بهِ . وهل يستفيد بهِ الانسان حقاً ؟؟ عندما يرى فيضان الذهب في صخور الصحراء امام عينيهِ . انهُ يستطيع التفكير في جوع او عطش غير الجوع والعطش نحو الذهب . . . نعم لقد كان هنالك جرع مؤلم ولكنهُ جوع لا يشبع . وكان هنالك عطش ولكنهُ عطش لا يروي على الاطلاق

ومن هذا الجوع والعطش تبكو الانسانية في كل حين

ولم يبق هنالك احترام ولا اعتبار مذ اخذت النشوة عليهم ارواحهم لمجرد رؤية الذهب ولم يبق لديهم عطف أو وحدة . بل تفانى الكل في الالتهاس بكل وجدانهِ بين لجج الخيال والذهول — ليس في العالم كله لذة تعادل لذة استخلاص هذا الكنز العزيز من جوف مناجمهِ . وقد ارادوا تحميل جالهم بقدر ما تستطيع . حتى ولو تفقت تلك الحيوانات القوية . ثم يحملون هم انفسهم بقدر كبير . . وأصبحت قوائم متضاعفة تضاعفاً غريباً . وأصبحوا هم جبابرة عتاة لهم فوق ما لطاقة البشر الآخرين . . وكان كل همهم حمل الذهب ونقله من وسط الصحراء النوبية حتى ولو كلفهم ذلك السير في كل مفاوزها وخلوقها ومرعباتها . بل في لهيب الشمس وعواصف الرمال . في تهديد الموت ووعيد الهلاك اياماً واسابيع طويلة . . انهم في كفاح مع الموت يداقمونهُ بكل قوائم كأنما يحملون حرزاً او طلسماً ضده . .

وبينما هم يقطعون بحر الرمال بحمية ونشاط عثروا على بقايا عظام انسان بشري . الاّ انهم ألقوا بها جانباً بغير مبالاة . وأخذوا يحتفرون الارض متوغلين في احتفارهم

ألا كيف مات اولئك القوم الذين عاشوا هنا منذ آلاف السنين ؟ وماذا كان سبب موتهم؟ ان الجميع لا يودون غير الحياة — الحياة — الحياة . كما يتطلبها الغلام الملتهب بحمى الرغبة للحصول عليها . .

ولقد رفع هذا بيده جمجمة احد الموتى الذين مضى عليهم ما يقرب من الستة آلاف من السنين ووجّه اليها خطاباً كله تهكم وسخرية ثم صاح اخيراً يقول

ألا فلتحي الحياة . . . . . ألا فلتحيا الحياة

حسن رشيد نور
مدرس
بمدرسة الفنون التطبيقية بالجيزة

« لها تتمة »